"دروشة"

السلطنة العثمانية

كتب أحد أكبر رواد مذهب الإنسانية جورج ساندیز، الذي دون أحد أول كتب الرحلات عن العالم الإسلامي ونظرة الغرب، ففي كتابه الذي يحمل عنوان "حكاية سياحة بدأت عام 1610م" اتبع في طريقة الكتابة خطى بسكال وكرر التعبيرات المعادية للإسلام التي ألفها الأوروبيون حول الدين الإسلامي والقرآن وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ففي نظر ساندیز لم تمثل الدولة العثمانية راية الإسلام، بل اعتبر أن العثمانيين يمثلون الشرق المعاكس لأوروبا، وقال: "إن السلطان العثماني طاغية، وبينما تمثل أوروبا القيم العليا للحضارة الكلاسيكية أي الإمبراطورية الرومانية، فإن الدولة العثمانية الموجودة على أراضي روما الشرقية تمثل التخلف والبربرية والفظاظة من وجهة نظري". واعتبر أن العثمانيين يفتقرون إلى العمق الذهني والرقة الجمالية.

ما الذي جعل ساندیز يكتب ويوثق تلك النظرة، وحتى نكون منصفين حتى المؤرخين العرب والمسلمين كتبوا عن تلك الفظاظة والتعاملات التي عُرف بها الشعب التركي وليس سلاطينه وحسب، وكتب أن الأتراك العثمانيين مجتمع بربري بعيد عن فهم الحضارة وقيمها. وقال عنهم ابن الفقيه: "الروم أصحاب صنعة، الهند أصحاب فلسفة، الترك كلاب ضالة، العرب هم أعقل الأمم وأفضلها سواء كان ذلك عن اعتقاد منه أم تظاهرًا بالتقرب للعرب". كما كتب صفات متفرقة متنوعة.

يعود ذلك إلى عقيدة جبلوا عليها وتوارثوها رغم إسلامهم، ولكن الاختلاط والخلط ترك الأثر الواضح إلى هذه الحقبة التاريخية، ويعتقدون ذلك من أصول الدين، ولسلاطينهم الطقوس التي مارسوها في الخفاء والعلن، واعتبروا ذلك جزءًا من تحضرهم وأن يواكب الدين كل المتغيرات التي تحولوا من خلالها.

كتب أحمد عبد الرحيم مصطفى عن السلطان محمد الثاني: "ورغم قسوة محمد الثاني فإنه تميز بالكفاءة والذكاء". ويقصد بالقسوة أنه استهل عهده بقتل أخيه أحمد، وقتن قتل أخوة السلاطين من بعده في سبيل مصلحة الدولة. ومن الكتابات التي تنتشر أثر تربية ونشأة السلطان محمد الثاني، والذي غرست في نفسيته أنه الأمير الذي يقصد بفتح القسطنطينية، فيذكر الكثير روايات منها: "قمنذ أن ولي السلطنة العثمانية سنة 855هـ الموافق 1451م، كان يتطلع إلى فتح القسطنطينية ويفكر في فتحها.

> التأثيرات الصوفية والأفكار المنحرفة واضحة في الدولة العثمانية.

تأثر محمد الفاتح بمعلميه منذ طفولته ومن أخصهم أحمد بن إسماعيل الكوراني، وكان مدرسه في عهد السلطان مراد الثاني. وفي ذلك الوقت كان محمد الثاني الفاتح، أميرًا في بلدة (مغنيسيا) وقد أرسل إليه والده عددًا من المعلمين ولم يمتثل أمرهم، ولم يقرأ شيئًا، حتى أنه لم يختم القرآن الكريم، فطلب السلطان المذكور رجلًا له مهابة وحدة، فذكروا له المولى (الكوراني)، فجعله معلمًا لولده وأعطاه قضيبًا يضربه بذلك إذا خالف أمره.. فذهب إليه، فدخل عليه والقضيب بيده، فقال: "أرسلني والدك للتعليم والضرب إذا خالفت أمري، فضحك السلطان محمد خان من ذلك الكلام، فضربه المولى الكوراني في ذلك المجلس ضربًا شديدًا، حتى خاف منه السلطان محمد خان، وختم القرآن في مدة يسيرة..".

مثل تلك الكتابات غير منطقية، ولا تمت إلى الواقع بصلة لا سيما إذا ما بحثنا في مصداقية مثل تلك الروايات نجد بين جنباتها المبالغة، ومحاولة صريحة وواضحة عن سلوكيات اتبعها السلاطين تعبر عن صوفيتهم ومزجهم بين العقائد المتوارثة بينهم وعمم على مذهب دولتهم، وإن لم يكن بصيغة رسمية لكنه واضح للعيان. ونجد عبدالعزيز الشناوي يكتب عن الدراويش في الدولة العثمانية ضمن مؤلفه الذي يعتبره الكثير بأنه كتاب لا يمكن التشكيك فيما جاء فيه ويتغافل الكثير عما وثقه وكتبه وذكر في مقدمته بأنه سيكتب ما للدولة وسيترك ما عليها لغيره. قال عن الدراويش: "وتلحق بالهيئة الإسلامية أيضًا طوائف الدراويش، وكانوا كثرة عددية كبيرة، ولكنهم لم يكونوا أعضاء في هيئة العلماء لأنهم لم يتلقوا دراسات علمية منتظمة أو محترمة". والغريب اعتبارهم ضمن الهيئة الإسلامية ولكنهم غير محترمين. ثم يأتي على ذكر الكم الهائل لانتشارهم وأنه عم جميع الطبقات وهذا دليل على أنه تحاشى الكتابة عن بعض السلاطين وانحرافاتهم الفكرية العقدية ومنهم محمد الثاني، ويكتب بالعام والمطلق حيث قال: "وانتشرت هذه الطوائف في أرجاء الدولة وشملت جميع الطبقات والأقاليم العثمانية. ومما هو جدير بالذكر أن عددها بلغ في مصر إبان الحكم العثماني زهاء ثمانين طريقة". ويكتب: "والمعروف عن العثمانيين أنهم يحبون التصوف والدروشة. وقد سجل الجبرتي عليهم ميلهم إلى الدراويش..". أجاب أحد عشاق الفاتح عن عقيدة الفاتح فقال: "كان الفاتح قائد الجيش هو محمد الفاتح وهو حنفي المذهب ماتريدي المعتقد صوفي المشرب".

لقد كان للدراويش تأثير واضح في شوارع إسطنبول مثلًا وترديد شعارات تؤكد طقوسهم وعقائدهم، وذكر بأنهم استطاعوا زمن الفتح أن يؤثروا على الجنود والسير في مسيرات وهتافات تؤجج الحماسة بطرائقهم المنعقدين عليها في سلوطياتهم، لذلك تردد عن دخول القسطنطينية عند سقوطها أن الفوضى عمت، وكثر السلب والنهب وما يتبع ذلك.

المراجع:

1. إبراهيم كالين، مقدمة إلى تاريخنا والآخر وما وراء العلاقات بين الإسلام والغرب، ترجمة: أنس يلمان (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2021).
2. أحمد عبدالرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني (القاهرة: دار الشروق، 1993).
3. توفيق الطويل، التصوف في مصر إبان الحكم العثماني (القاهرة: د.ن، 1946).
4. فاطمة عبدالرؤوف، الحرملك (القاهرة: دار الفاروق، 2022).
5. عبدالعزيز الليميلم، نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء (د.م: د.ن، 1403هـ).
6. عبدالعزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1992).